مقاومة النساء الإفريقيات للاستعمار الفرنسي في القرن 19م
لالة فاطمة نسومر والملكة رانافالونا 1- أنموذجا "

أ. صالحي مليكة
- جامعة الجزائر 2-

الملخص:

تناول هذا المقال شخصيتين إفريقيتين في المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر 19م ، وهما لالة فاطمة نسومر من شمال إفريقيا والملكة رانافالونا في الجنوب الشرقي من القارة ، وحاول رصد أهم أحداثهما مع المستعمر الغاشم ، وبيان طبيعة كل منهما في الدفاع عن تراب الوطن وحماه ، مبينا دور المرأة الإفريقية في المواجهة والتصدي لأشكال الاستعمار الظالم ، كما بين الفوروقات بينهما من حيث المكانة الاجتماعية والنفسية وغير أنهما اتفقتا في محاربة الاستعمار ومقاومته كلٌ بطرائقها ووسائلها وما أتيح لها من قوة وذكاء ، كما تعرض المقال إلى السياسة الفرنسية في الحد من مقاومتهما سواء بالاتفاقيات والهدنات أو بالجوسسة والمكر والمؤامرات.

الكلمات المفتاحية : لالة نسومر – رانافالونا – مقاومة – الإفريقيات – الاستعمار الفرنسي .

Abstract :

This article took two African personalities in the resistance against the French colonization during the century the nineteenth 19m, illusion for instrument of Fatima nswmr from north of African and the queen Ranavalona in the south east from the continent, and observation more important their of events with the oppressive colonist tries, and in Yan nature all from them in the defense about dirt the country and his two father-in-laws, shown women's role African in the confrontation and the challenge for forms the oppressive colonization, evident sleeve aalfwrwqaat between them with respect to the social and mental standing and however they that they fighter of the colonization agreed in and resistant his all in her methods and her methods and what allowed for her from force and intelligence, as suffered the article to the French politics in the limiting of their resistance whether in consensual and the ceasefires or baaljwsst and the deception and the conspiracies.
Words key: For instrument nswmr Ranavalona - resistance - African - the French colonization.

مقدمة:

شهدت القارة الإفريقية في القرن 19م تكالب استعماري أوروبي ضربت جذوره وبداياته منذ القرن 17م ، وكانت تسعى هاته الدول لفرض سيطرتها على إفريقيا بمختلف الصيغ وبكافة الوسائل ، ومن بين هاته الدول السباقة فرنسا وانجلترا اللتان كانتا تتنافسان على كل شبر من القارة السمراء بحثا عن الثروات الطبيعية والبشرية ، وإن اختلفت وضعيتهما من دولة إلى أخرى في فرض السيطرة فهناك من اكتفت بفرض الحماية عليها فقط واستغلالها وهناك من احتلتها وجردتها من خيراتها .

يعتبر الاستعمار الفرنسي من أبشع الكيانات الاستدمارية التي حطت بالقارة الإفريقية ولم تتوان في فرض سيطرتها على كل جزء منها خاصة إذا سنحت لها الفرصة ولم تجد منافسا فتحط عدوانها كما فعلت في شمال إفريقيا وفرضت حمايتها في شرقها وغربها وأقصى شرق جنوبها ، مبتغاها الوحيد استنزاف خيراتها على عكس إدعائها بنشر الحضارة والمدَنية .

لكن أمام هذا العدوان والدمار الشامل لم يبق الأفارقة مكتوفي الأيدي بل واجهوه بكل وسائلهم وإن اختلفت دياناتهم ، وهذا ما لمسناه في المقاومة الشعبية في الجزائر منذ أن وطأت أقدام المحتل الفرنسي أرض الجزائر ، وإذا تكلمنا عن جنوب القارة وجدنا الشيء نفسه من المقاومة فمدغشقر باختلاف آراء شعبها وأعراقهم واختلاف ملوكها وآرائهم حول التواجد الأوروبي إلا أنهم رفضوه وحاربوه حتى لحظة خروجه من الجزيرة .

و يأتي هذا الموضوع ليقف على مقاومة في القارة السمراء من خلال بحث شخصيتين من نساء إفريقيا واللتان واجهتا الاستعمار الفرنسي وإن اختلفت ظروفهما من حيث المكان والديانة والوضع الاجتماعي إلا أنهما اتفقتا في محاربة الاستعمار الفرنسي. واخترنا شخصية لالة فاطمة نسومر في الجزائر والملكة رانافالونا الأولى في جزيرة مدغشقر وكان هذا الاختيار لعدة اعتبارات أهمها :

– كلا منهما اتهمت من طرف المصادر الأجنبية ، ففاطمة نسومر اتهمت بالجنون وعدم الرغبة في الزواج لاعتبارات كانت تخفيها وأما رانافالونا اتهمت بالقسوة وبأنها حاكمة دامية قتلت شعبها والأجانب حتى تسيطر على البلاد .

– جاءت الشخصيتين محل الدراسة في نفس الفترة نفسها (حوالي منتصف القرن التاسع عشر 19م).

– شاركت كلا منهما في مواجهة الاستعمار الفرنسي بقوة السلاح.

– كل واحدة من البطلات الإفريقيات حاربت من أجل دين أجدادها ودينها مهما اختلفتا في الديانة.

– كما اتسمتا بالشخصية الوطنية والدفاع عن الوطن .

– كلا منهما كانت من عائلة النبلاء والأشراف في بلديهما حتى وإن كانت رانافالونا ملكة وفاطمة نسومر من عامة الشعب .

– التحدي الذي عرفته كلا من فاطمة نسومر و رانافالونا في مواجهة التواجد الفرنسي كل على أرضها .

لذلك أردنا أن نذكر بعض خصال ومزايا كلا من الملكة رانافالونا و لالة فاطمة نسومر ومعرفة خبايا الشخصيتين ، وما مدى تأثيرهما في مسرى الأحداث التاريخية في الفترة الاستعمارية .

لقد عرف الاستعمار الفرنسي في الجزائر مواجهة عنيفة من طرف المقاومة الشعبية ولم تنته من منطقة حتى تنطلق في منطقة أخرى ، ودامت حوالي ما يقارب القرن من الزمن ومن جملة هذه المقاومات مقاومة لالة فاطمة نسومر هذه البطلة التي ما زال التاريخ يُمجدها

حتى الاستعمار الفرنسي نفسه لقبها بلقب من بطلات الثورة الفرنسية وأسماها جان دارك جرجرة .

ولدت فاطمة نسومر بالشمال الشرقي للجزائر في منطقة القبائل حوالي سنة 1830م بقرية ورجة بلدية آيت يوسف حاليا وعين الحمام سابقا وهي بنت سيدي أحمد محمد ينتهي نسبها إلى جدها الأول سيدي أحمد أومزيان الذي كان مقدما للطريقة الرحمانية وله مزارا ما زال قائما إلى اليوم يعرف بسيدي حنداوقمزيان بقرية ورجة ، أما أمها فهي ثركية آيت بوخلاف من قرية عسكر دائرة إيفرحونن . [1]

كانت نشأة فاطمة نسومر الدينية والاجتماعية على الطريقة الرحمانية ، أما صفاتها الجسمانية فهي كباقي نساء بلاد القبائل تميزت بالجمال الفائق ، ورغم عدم تعلمها في المدرسة لاقتصار التعليم ذلك الوقت على الذكور دون الإناث حسب الأعراف إلا أنها تمكنت من حفظ القرآن الكريم بالإضافة للمحافظة على الصلاة وكان لديها الحكمة وبُعد النظر والزهد على صغائر الأمور ، هذا ما مكنها من القوة ورفض الاضطهاد وأصبحت لا تقبل بالتعسف خاصة في حق النساء وأن الإسلام كرمهُن .[2]

وعُدت فاطمة نسومر متمردة بسبب عزوفها عن الزواج وكثرت الشائعات بين سكان القرية وأن فاطمة سكنتها الأرواح ، في هذه الظروف خطبها أحد أبناء أخوالها يدعى سي يحي آث بوخلاف من سكان قرية تيرودة .[3]

فوافق أخوها على تزويجها بعد وفاة والدها وتمت مراسيم الزواج وليلة زفافها تظاهرت بالجنون وكسرت بعض الأواني فأرجعها زوجها إلى بيت أبيها ولم يطلقها أبدا وبقيت على عصمته طوال حياتها.[4]وبقيت في عزلة حيث كلفها أخوها سي الطيب بالاهتمام بالمدرسة القرآنية.[5]

بعدها تركت مسقط رأسها قاصدة سومر أين يقطن أخوها الأكبر سي الطاهر وإلى هذه القرية نسبت المجاهدة فاطمة ، [6] وكان بيت أخيها مزارا للناس وهنا عرفت فاطمة الاستقرار النفسي وتأثرت بأخيها الذي ألم بمختلف العلوم الدينية وكان مقدما للزاوية الرحمانية فاستغلت الوضع وواصلت حفظ القرآن .[7]

من هنا بدأت فاطمة نسومر رسم مسارها المستقبلي ورفضت أن تكون مجرد مساعدة للرجال في معاركهم من الصفوف الخلفية بل صنعت لنفسها وضعا متميزا .[8]

لم تكن لالة فاطمة غافلة عما يجري حول بلاد القبائل فكانت تصلها أخبار زحف الجيش الفرنسي بين سنتي (1844م– 1845م) كأخبار معركة تادميت التي قادها الجنرال بيجو والمجاهد عمر بن زعموم .[9]

ومن أهم المعارك التي خاضتها لالة فاطمة نسومر بعدما خاطبت اتباعها على ضرورة الدفاع عن الارض والممتلكات وحضرتهم نفسيا للمرحلة القادمة وبالمقابل عينت فرنسا راندون randon حاكما عاما الذي أمر بمجابهة الثورة في بلاد القبائل وواجه سلسلة مقاومات بوبغلة سي الشريف ومنها مقاومة تمزقيدة .[10]

وواصلت فرنسا زحفها بقيادة الجنرالين يوسف و راندون ومعهم الخائن سي الجودي ، كانت لالة فاطمة نسومر إلى جانب بوبغلة تخوض غمار الحرب كما قامت بإلقاء القبض على الآغا سي الجودي وقتلته بيدها .[11]

وبتاريخ 07 أفريل 1854م وقعت معركة مشتركة بين بوبغلة و لالة فاطمة نسومر في مواجهة الجنرال وولف wolf بوادي سيباو ، أظهرت فاطمة نسومر براعة في القتال وأصيب بوبغلة بجراح كادت أن توقع به في الأسر لولا فاطمة التي اندفعت لتسعفه وقالت له " لن تتحول لحيتك إلى عشب أبدا " .[12]

لقد كانت المقاومة شرسة في جرجرة ولهذا جنّد راندون كل القوات الموجودة في مدينة وهران وقسنطينة تحت قيادة عدد كبير من الجنرالات ، [13] ولحقت قوات كل من الجنرال ماك ماهون mac mahon والجنرال كامو camou وتمركزوا ما بين يسر وسيباو وانطلقت العمليات العسكرية في أول جوان .[14]

واستهدفت منطقة أغريب وأحرقتها مع تقرسيفث و أخربان – ثزروتس – ثلانتقانا – ازرومشقان – أذرار نايت كديا ، [15] وكان هدف راندون الحقيقي هو الوصول إلى جرجرة وكان بوبغلة جريحا ولم يشف ولم يبق في بنو جناد فانتقل إلى زواية الحاج أعمر.[16]

وبفضل لالة فاطمة نسومر ومجموعة المجاهدات وتشجيعهن للمجاهدين للصمود أمام العدو في جبل اهل آيت يحي ، استطاع بوبغلة الصمود أما معارك فاطمة نسومر التي قادتها بمفردها فوقعت الأولى في قرية تزروتس (ضواحي عين الحمام). [17]

ولما وجد بوبغلة القوة والشجاعة في فاطمة نسومر خطبها من أخوها وأراد أن يدفع مبلغا لزوجها الأول لكن هذا الأخير رفض ولم يتم الأمر.[18]

واجهت فرنسا خصما قويا وكانت المقاومة ثنائية بين بوبغلة و لالة نسومر مما أجبر الجنرال راندون الانسحاب ، وشاءت الظروف أن يسقط بوبغلة في بني عباس ويُقتل عن طريق قائدهم لخضر بن أحمد المقراني حسب الروايات المختلفة .[19]

وواصلت فاطمة نسومر الجهاد وكان معها الحاج عمر وهاجموا مواقع العدو في بوغني وذراع الميزان وأظهرت فاطمة نسومر براعة في القتال .[20]

ثم واصل راندون المعارك والزحف بعد توقفه لفترة وزحف نحو تاشكيرت ووقعت المعركة بتاريخ 17 جوان 1854م ، [21] وكانت فاطمة نسومر قائدة المعركة فهزمته هزيمة نكراء بالرغم من قواته وعتاده وفقدانه لحوالي لـ 800 جنديا و 25 ضابطا و 371 جريحا وربما الأرقام تفوق ذلك .[22]

كما قامت فاطمة نسومر بتجنيد الفتيات على اختلاف أعمارهن للمقاتلة بجانب الرجال وتضميد الجرحى ، فواجهت ضغطا كبيرا خاصة بعد اتباع فرنسا سياسة إحراق القرى لذلك أدخلت فاطمة جيشها المعركة حتى تزيد من حماسه ،بالإضافة إلى تكليفها للمجاهدات المسنات بالطواف في المعركة وقد وضعنا في أيديهن خواتم مسننة وطلَينا راحاتهن بالهباب فإذا فرَ مقاتل مررنا على وجهه أيديهن فيتم جرحه بالخواتم ويدخل الهباب وجهه وتصبح شامة سوداء سميت شامة الفرار واعتبرت عار في القرية على صاحبها .[23]

وبعدها قررت السلطات الاستعمارية بقيادة سبع جنرالات الهجوم على الأربعاء نايت إيراثن في ماي 1857م وانسحب المجاهدون إلى إيشريضن وقام راندون بقتل وحرق وتشريد الأهالي ، مما دعا فاطمة نسومر إلى تجميع المجاهدين والخطاب عليهم وإقناعهم بضرورة التصدي ، فتوقفت فاطمة في إيشريضن للمبيت قبل التقدم إلى الأربعاء نايت إيراثن إلى أن راندون بلغه الخبر ووقعت المعركة بين جيشه مع الجنرال ماك ماهون ويوسف ودهوت بول وبين جيش لالة نسومر وانهزم فيها المجاهدون ، لكن لم تستسلم فاطمة وقطعت الطريق على العدو بالأربعاء وانضمت إليها الاعراش وأمناء القرى حتى ذاع صيتها في العاصمة ، أمام هذا جهز راندون جيشا بحوالي 45 ألف جندي في 11 جويلية 1857م وبدأت المعركة .[24]

وتذكر المصادر أن فاطمة نسومر كانت ترتدي لباسا أحمرا حريريا لترعب الأعداء ،[25] ولكن الكفة رجحت لصالح الفرنسيين لعدم تكافؤ القوى ونتج عنها : – إيقاف القتال وطرح المفاوضات التي تنص على عدم دفع الضرائب و حماية الممتلكات الخاصة بالأهالي .[26]

تظاهر راندون بقبول المفاوضات لكنه ألقى القبض على الوفد بمجرد خروجه من المعسكر وأرسل النقيب فورشو إلى ملجأ لالة نسومر وأسرها ، [27] وفي صباح اليوم الموالي عرضت المجاهدات ومعهن فاطمة نسومر أمام الضابط والجنود الفرنسيين وخاطب راندون الحاضرين قائلا: " سادتي يشرفني أن أقدم لكم جان دارك جرجرة مشيرا إليها ".[28]

رحل الجيش بالأسرى المتكونين من خمسة 05 رجال (المفاوضين) و خمسة وعشرين مجاهدة 25 اللائي كن في حراسة فاطمة نسومر ، واتخذوا سبيلهم إلى الأربعاء نايت ايراثن ثم قضى الاسرى مدة 49يوما في مدينة يسر في عزلة تامة حتى انتقلت لالة فاطمة نسومر إلى بني سليمان (تابلاط) وبضواحي ولاية المدية ووُضعت في زاوية تحت حراسة عسكرية قضت في هذا المكان ست سنوات ، تفرغت في سجنها للعبادة وطاعة ربها وظلت تتنسم أخبار الوطن والمقاومة ، وبقي الجزائريون يزورونها ليسمعوا نصائحها وإرشاداتها وقد أحصت السلطات الفرنسية عدد الزوار الذي بلغ حوالي مائتي 200 شخص في اليوم وهذا دليل على وفائهم لها .[29]

وأطلق عليها المستعمر الفرنسي اسم جان دارك جرجرة مشبها إياها بالبطلة القومية الفرنسية جان دارك لكنها رفضت اللقب مفضلة لقب " خولة جرجرة " نسبة إلى خولة بنت الأزور المجاهدة المسلمة التي كانت تحارب بجانب خالد بن الوليد .[30]

انتابها مرض أثناء سجنها أصابها بشلل في ذراعها ثم انتقل إلى كافة جسمها وأصبحت عاجزة عن الحركة فقامت النساء الوفيات بتمريضها وخدمتها إلى غاية وافاتها وشيعت جنازتها بزغاريد سنة 1863م عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين سنة،[31] دفنت بمقبرة سيدي عبد الله غير البعيدة من مقر إقامتها وبعد الاستقلال نقل رفاتها إلى مدينة الجزائر لتدفن بمقبرة العالية في مربع الشهداء ومن أقوالها : " الحرية زهرة نادرة تطلبها كل الشعوب ولكنها لا تترعرع إلا عند الذين يسقونها بالدماء .[32]

وبقيت لالة فاطمة نسومر في ذاكرة الشعب الجزائري المرأة التي أعطت درسا في الجهاد والوطنية والتضحية على الوطن ، وخلاصة القول حول هذه المرأة المغوارة نقول بأن المرأة الجزائرية تمسكت بمقومات الشخصية الجزائرية والدين الإسلامي خاصة واعتزازها بالانتماء للأمة الجزائرية خاصة والعربية الإسلامية عامة . كما ساهمت البيئة في صقل شخصيتها وترعرعها وسط أسرة محافظة ومتدينة ، فكان الدين الإسلامي معقل المقاومة الشعبية

للاستعمار الفرنسي ، ففاطمة نسومر بنت الزواية الرحمانية التي واجهت الفتن والتغلغل الاستعماري ورفضت كل ما هو غريب عن المقومات الشخصية الإسلامية والجزائرية .كانت فاطمة نسومر نموذجا للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في القرن 19م في شمال إفريقيا

ولم تتوان باقي النساء الإفريقيات في الدفاع عن أوطانهن في مواجهة الاستعمار الأوروبي عامة والفرنسي خاصة ، من هاته النسوة اللواتي برزن في مواجهة المدَ الاستعماري وتوقيف زحفه حتى قبل الاحتلال نجد الملكة رانافالونا الأولى في جزيرة مدغشقر ، كما سبق الذكر فهاته الملكة ذكرتها بعض المصادر الأوروبية بأنها دامية وقاسية ومنغلقة في وجه الحضارة وهذا لا لشيء إلا لأنها رفضت التواجد الأوروبي على أرضها وأرادت توحيد الجزيرة تحت سلطة واحدة .

ولدت رانافالونا الأولى حوالي سنة 1788م واسمها الحقيقي مافو Mavo أو رامافو Ramavo وهي ابنة أخ الملك أندريانامبوانيمرينا Andrianampoinimerina وتزوجت الملك راداما الأول Radama وحملت لقب رانافالونا مانجاكا الأولى أي رانافالونا الحاكمة [33].

كما سميت المرأة الملغاشية الحديدية التي حكمت بعد وفاة راداما الأول من 1828م إلى 1861م ،[34] فبعد موت راداما في 27 جويلية 1828م كانت العادات المحلية تشير إلى أن الوريث الشرعي لاعتلاء العرش هو راكوتوبي Rakotobe الابن الأكبر لأخته الكبرى وكان شابا ذكيا ومن أوائل التلاميذ في مدرسة جمعية لندن التبشيرية في انتاناناريفو ، لكن ظهرت طبقة متكونة من العسكريين والنبلاء أمثال أندرياميهاجا Andriamihaja (الذي استعبد بدوره من السلطة) وكذلك راينيهارو Rainiharo (هو والد رنيلاريفوني الوزير الأول حتى سقوط مدغشقر سنة 1895م) والذي توفي سنة 1852م ، وكذلك راينيجوهاري Rainijohary، هذه الفئة ذات الرتب العسكرية أيدت مافو على اعتلاء العرش وكانوا كلهم غير راضين على سياسة راداما وعلاقاته مع الأجانب وجاء هذا التأييد علانية في 11

أوت 1828م ولم تكن هناك مقاومة ، لكن رامافو عند اعتلائها للعرش قامت بتصفية كل منافسيها وتوجت بالتاج الملكي في 12 جوان 1829م .[35]

تذكر المصادر بأن الملكة تميزت بالقسوة لدرجة أنها تخلصت من عدد كبير من عائلتها حتى أم زوجها قامت بقتلها .[36] وتعد الملكة رانافالونا الأولى أول ملكة حكمت جزيرة مدغشقر في القرن التاسع عشر 19م واختارت سياسة مختلفة عن سياسة زوجها لأنها لا تعجبها الأفكار التقدمية التي سادت الجزيرة أثناء حكم زوجها واتبعت أفكارا تحفظية تعود إلى تقاليد الأجداد والأسلاف واعتمادها على السحرة .[37]

كما اتهمت بالجنون الهذياني ومحبتها للحروب دون سبب، وهذا ما جعلها تُكون طبقة أعداء تتربص بها وفي عهدها قتلت حوالي 100 ألف شخص ، بالإضافة إلى حوالي 200 ألف شخص عن طرق التنغوي * كما عرفت تجارة الخيزران في عهدها وتجارة العبيد الذي ألغاها الملك راداما الأول بعد إمضاءه معاهدة مع بريطانيا في 1817م .[38]

بالإضافة إلى توحيدها للجزيرة فكان عندها مستحيل تقسيم الهوفا عن الملغاش لأن الهوفا والملغاش لا ينقسمان .[39]

كانت رانافالونا مولعة بالوطنية وحاربت منذ البداية التواجد الأجنبي في الجزيرة خاصة المبشرين المسيحيين ، وهنا رفعت شعار العداء ضد الفرنسيين والانجليز، وأمام طرد الفرنسيين من الجزيرة وجهت الحكومة الفرنسية حملة عسكرية كانت نواياها في الاحتلال لكن لعدم تكافؤ القوى ، انطلقت حملة من البوربون في 15 جوان 1829م بقيادة الأميرال دي فايسو غوبيري Devaisseau goubeyre على أنها حملة ودية ودعوا الملكة إلى الاعتراف بالامتيازات القديمة الممنوحة لهم و حقوقهم في حصن الدوفين أمام الملكة رانافالونا وحُملت لها هدايا من طرف الحكومة الفرنسية متكونة من معطفين من الكشمير وفستان مخملي وفستان من التول (قماش خفيف منسوب إلى قرية تول الفرنسية) مطرز

وهدايا أخرى حتى يبين لها المنتوجات المصنوعة في فرنسا وكانت محطة الأميرال مدينة تاماتاف الساحلية بحملة متكونة من 437 رجل وبعث لها رسالة وانتظر الرد لمدة عشرين يوماً .[40]

فردت الملكة على طلبه قائلة: " استقبل سفير ملك فرنسا بكل سرور لكن لا أقبل بإقامته على أرضي"[41] فقام غوبيري في 10 أكتوبر 1829م بإطلاق النار في تاماتاف وتمكن من طرد الهوفا منها، وقصف مدينة تنتينغوي tintingey فأعلنت الملكة رانافالونا الحرب على فرنسا، فانهزم غوبيري في مدينة فول بوانت Foul Point ، وفي 25 أكتوبر 1829م حط في بوانت لاري Point Larré وبدأ المرض والجوع يضرب الجنود، بالإضافة إلى عدم وصول التموين مما أدى به إلى الانسحاب دون الانتقام من الملكة.[42]

فالحملة بدأت بمخطط واسع، لكن اهتمام فرنسا بثورة واحتلال الجزائر سنة 1830 لم يسمح لها باكمال مخططاتها في جزيرة مدغشقر، بالإضافة إلى براعة جيش الهوفا وتخطيط الملكة وصمودها،[43] وبقيت مدغشقر تعيش السلام المؤقت مع فرنسا ثم أرسلت بعثة تبشيرية سنة 1832م لكنهم ماتوا جوعا واضطرت الملكة رانافالونا للتنازل قليلا عن سياستها العدائية تجاه الأوروبيين لإتاحة فرصة للتطور لبلدها فقررت إرسال بعثة سنة 1836م إلى كل من فرنسا وإنجلترا للتفاوض على معاهدتين للصداقة والتجارة معتمدة في ذلك على استقلال الملغاش والاعتراف بالملكة رانافالونا ملكة لكامل مدغشقر ولكن فشلت هذه البعثة.[44]

وأمام هذا الفشل زادت ريبة الملكة من الأوروبيين وقامت بطرد كل البعثات المسيحية من الجزيرة، كما أعلنت سنة 1835م تقول: " إنني لا أصلي لأسلاف الأوروبيين ولكن لله وأجدادي وفقا لهذه العادة تولى عرش البلاد الإثني عشر ملكا وكذلك بالنسبة لي، ولقد أحترم أجدادكم، هذه هي العادة، ومن يقوم بإتباع الدين الجديد سوف يقتل، وذلك لأنني وريثة الإثني عشر ملكا " ومن خلال هذا المنشور واجه المسيحيون القتل والطرد والتشريد.[45]

بالإضافة إلى هذا أعلنت في 13 ماي 1845م قائلة: " من هذا اليوم إن كل المتعاملين (التجار) يخضعون للقانون الملغاشي ويقومون بأعمال السخرة(الأعمال الشاقة بدون مقابل) الخاصة بالملكة والأعمال العامة،وحتى العبودية ويخضعون لقانون التنغوي ولا يخرجون من تاماتاف تحت أي حجة ولا يقومون بالتجارة الداخلية مع الجزيرة ".

هذا القانون مسَ كل الأوروبيين وهذا ما جعل الفرنسيين يسرعون إلى إرسال حملة من جزيرة البوربون بقيادة الأميرال ديسفوسي رومان Romain desfosses وقدومه بسفينة حربية تدعى زيلي Zelée ، في الوقت نفسه جاءت السفينة الحربية الانجليزية كونواي Conway بقيادة الأميرال وليام كيلي William kelly من جزيرة موريس واستقروا في تاماتاف في 15 جوان 1845م ، لكن حاكم الهوفا في تاماتاف ردَ على لسان الملكة رانافالونا قائلا: " لقد استقبلنا رسالتكم ونحن نصرح بعدم تغيير تصريحنا لأنه أعطي كقانون للبلد وتحياتي " ، هكذا انطلقت الحرب وكانت الهزيمة للفرنسيين والإنجليز وغلقت مدغشقر أمام التجارة الأوروبية لمدة ثمانية سنوات .[46]

بالإضافة إلى تصدي الملكة للحملات العسكرية تصدت للحملات التبشيرية وأخرجتهم من مدغشقر وأغلقت مدرسة جمعية لندن التبشيرية ، كما صادرت جميع الكتب الدينية ، حتى الأهالي الملغاش المتنصرين لقوا معاملة قاسية من الملكة وهربوا إلى الجزر المجاورة .[47]

لكن سماح الملكة لبعض التجار الفرنسيين بالعمل في الجزيرة من أجل تطورها وتطور شعبها ، فتح المجال لفرنسا للمطالبة بحقوقها مرة ثانية خاصة في عهد دي لاستيل De lastelle وإقامة مزارع قصب السكر ، وجان لابورد Jean laborde وأعماله في التصنيع وبناء القصر الخشبي للملكة رانافالونا الأولى .

هذا ما مهد لهم بوضع المؤامرة مع وريثها على العرش راكوتو الملقب براداما الثاني لكنها كُشفت من طرف الملكة وحاولت تسميمهم جميعا كل من لابورد ودي لاستيل و لامبير

وهربوا من الجزيرة ولم يعودوا حتى توفيت الملكة في 16 أوت 1861م بقصرها إثر مرضها بعد ثلاثة وثلاثين سنة من الحكم .

لقد عرفت كل من لالة فاطمة نسومر والملكة رانافالونا الأولى الوطنية والإخلاص للوطن ، كما أخلصتا لدينهما فالأولى تشبعت بالدين الإسلامي ونهلت من العلوم الدينية وأصبحت قيّمة على الزاوية الرحمانية رفقة عائلتها بالرغم من أن المستعمر حاول تشويه تاريخها وجعل أن الأمازيغ ليسوا عربا ولا مسلمين ولكنها هي بنت الأمازيغ من أوائل المحاربات لوجودهم حاملة راية الإسلام ، والثانية رفضت أن تتعبد بديانة المسيحية وقدّست ديانة أجدادها حتى وإن شوهها المستعمر الفرنسي بأنها بربرية وتتعبد الأوثان والأموات ورفضت أي تأثر بهم على الرغم من أنها كانت بحاجة إلى تطور وازدهار في مختلف المجالات .

كل من لالة فاطمة نسومر ورانافالونا أرادتا صناعة مجديهما وقيادة الرجال وممارسة السلطة فلأولى أرادت محاربة الاستعمار الفرنسي وان تكون قائدة المعارك وكان لها ذلك ، والثانية أرادت الحكم والملك لتحقيق أمجادها وتخليد ملوك الهوفا السابقين وساعدها في الوصول إلى ذلك طبقة النبلاء والعسكريين

حاربت لالة فاطمة نسومر المستعمر الفرنسي الذي إحتل بلادها وشرّد أهلها وحافظت على تقاليدها ولباسها التقليدي الجزائري ودينها إلى آخر حياتها ،كما حاربت الملكة رانافالونا التواجد الأوربي الفرنسي والانجليزي ولم يكن في تلك الفترة استعمار مباشر لأن فرنسا كانت غير قادرة على احتلال مدغشقر لانشغالها بشمال إفريقيا ، واكتفت بمحاولة فرض امتيازات عليها ، بالرغم من ذلك أثرت الطبقة الحاكمة على الملكة في القيام بربط علاقات مع فرنسا وتأثرت حتى بلباسهم وطريقة عيشهم إلا أنها رفضت ديانتهم واستقرارهم على أراضيها .

كانت فاطمة نسومر محاطة بحلفاء كُثر مما سهل عليها المقاومة حتى في مرضها وجدت مجاهدات بقين في خدمتها حتى وافتها المنية ، لكن الملكة رانافالونا عرفت بعض الخيانة

والمؤامرة كونها كانت ملكة وتحتل العرش وجاءتها حتى من ابنها الذي تحالف مع الفرنسيين للإطاحة بها .

واجهت فاطمة نسومر جنرالات فرنسا وأهمهم راندون وماك ماهون وكامو ويوسف وكذلك رانافالونا التي عرفت حملات عسكرية من قيادة غوبيري ورومان دي فوسي ووليام كيلي .

كان ثمن مواجهة لالة فاطمة نسومر الاعتقال والنفي عن قريتها حتى وافتها المنية في سبتمبر 1863م عن عمر يناهز ثلاثة ثلاثين سنة ، بينما الملكة رانافالونا ماتت في قصرها وعلى عرشها في أوت 1861م عن عمر يناهز الثلاثة والسبعين .

وصف الاستعمار الفرنسي كلا منهما لقوتهما وزعامتهما ، فأسمى فاطمة نسومر بجان دارك جرجرة نسبة للبطلة القومية الفرنسية وبينما الملكة رانافالونا فاسموها كاليقولا الملغاش نظرا لبطشها وتشبيهها بالإمبراطور الروماني كاليقولا .

وإن اختلفت آراء المستعمر الفرنسي حول البطلات الإفريقيات العظيمات مهما اختلفت ديانتهن ولون بشرتهن وعاداتهن وتقاليدهن، إلا أنهن أعطين درسا للمستعمر الغاشم وأنهن [1]يرفضن الأنصهار في الحضارة الأوروبية والذود عن حماية ترابهن ويمتن من أجل الوطن.

الهوامش: [2]

---

* لالة : لفظة توقير أمازيغية تعني السيدة

انظر صورة لالة فاطمة نسومر، ص 04.

[1]– محند الطيب سي الحاج محند : لالا فاطمة نسومر ودروها في المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي ، دور الطريقة الرحمانية في تعبئة المقاومة الشعبية في منطقة القبائل ، فرع المركز الثقافي الإسلامي لولاية تيزي وزو ، 2004م ، ص 01

1

2

[2]– رابح لونيسي و آخرون : تاريخ الجزائر المعاصر (1830م– 1989م) ، ج2 ، دار المعرفة ، 2010م ، ص 78.

[3]– عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج4 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1994م ، ص 316.

[4]– سيدي موسى محمد الشريف : مقاومة لالة فاطمة نسومر للاستعمار الفرنسي . كفاح المرأة الجزائرية ، ط 2 ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م ، الجزائر ، 2007م ، ص 34.

[5]– فيصل هومة : .رجال لهم تاريخ متبوع بنساء لهن تاريخ، دار المعرفة، الجزا ئر، 2010م ، ص 402.

[6]- سيدي موسى محمد الشريف:المرجع السابق، 34.

[7] - Tahar oussedik : l ,lla fat ma n soumeur , édition ENAG , Alger , 2005, p 13.

[8]– بوعلام السايح : إعلام المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم (1830م– 1994م) ، المجلد الأول ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار وزارة المجاهدين ، الجزائر ، 2010م ، ص 117.

[9]- سيدي موسى محمد الشريف:المرجع السابق، 35.

[10]– نفسه، ص35.

[11]– حسن حموتن : لالة فاطمة نسومر ، مجلة الأصالة ، العدد 16، المجلد الخامس ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، 2001م ، ص 162.

[12]- محند الطيب سي الحاج محند : المرجع السابق ، ص 05.

[13]- .محمد سي يوسف: مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي » ثورة بوبغلة نموذجا« ، دار الأمل، تيزي وزو، 2000م ،ص 128

[14]– ابراهيم مياسي : لمحات من جهاد الشعب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007م ، ص 125.

[15]- محمد سي يوسف: المرجع السابق ، ص 135.

[16]– نفسه ، ص 137.

[17]– حسن حموتن : المرجع السابق ، ص 107.

[18]– أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان ، 1992م ، ص 351.

[19]– ابراهيم مياسي : المرجع السابق ،ص 127.

[20]– بشير بلاح : تاريخ الجزائر المعاصر (1830م – 1989م)، ج1، دار المعرفة ، الجزائر ، 2006م ، ص 128.

[21]- محند الطيب سي الحاج محند : المرجع السابق ، ص 07.

[22] - Tahar oussedik : op cit , p 54.

[23]- محند الطيب سي الحاج محند : المرجع السابق ، ص 07.

[24]- حسن حموتن : المرجع السابق ، ص 164.

[25]– ابراهيم مياسي : المقاومة الشعبية الجزائرية ، دار المدني ، د م ، 2004م ، ص–ص 91–92 .

[26] - Tahar oussedik : op cit , p 79.

[27]– ابراهيم مياسي : المقاومة الشعبية ،المرجع السابق، ص 92.

[28] – سليمة كبير : لالة نسومر (حواء الجزائر وفارسة جرجرة) ، مكتبة الخضراء للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ت ، ص 30.

[29]– نفسه ، ص 32.

[30]– فيصل هومة :المرجع السابق ، ص 402.

[31] - Tahar oussedik : op cit , p84.

[32] - محند الطيب سي الحاج محند : المرجع السابق، ص 13.

انظر صورة الملكة رانافالونا الأولى ، ص 10.

[33] - Dominique Ranaivoson : Madagascar dictionnaire des personne lités historique, edition sépia , paris
, 2005, p-p 12-13.

[34] - Marc trillard : Madagascar , édition marcus , paris , ? , p 11.

[35] - Françoise raison-jourde : bible et pouvoir à Madagascar au 19 siècle, édition Karthala, paris, ?, p-p
124-126

[36]- سحر السيد إبراهيم : الحكم الوطني في جزيرة مدغشقر في القرن 19م ، رسالة ماجستير مقدمة في معهد الدراسات الإفريقية ،
القاهرة، 2006، ص 185.

.

[37] – J.F Rabemananjara : le secret de Ranavalona 1 er (la réaction païenne psychologie historique) , revue des jeunes de Madagascar , n 03 ,Antananarivo, nov , 1935, p 77.

[38]- Marc trillard :op cit , p 11.

* التنغوي : شجرة لها ثمار سامة تقدم للمتهم يأكلها وإذا كان غير مذنب فلا يموت والعكس وفي كل الأحوال هي قاتلة .

[39] - J.F Rabemananjara :op cit , p 74.

[40] - L'amiral Duperré : précis sur les établissements formés a Madagascar, imprimerie royale, paris, ? , p-
p 50- 52 .

[41] - Louis brunet : la France a Madagascar 1815- 1895, librairie hachette , paris , 1895 , 2eme édition , p-p
180-182

[42] - Frédéric nolte : l'Europe militaire et diplomatique au dix neuvième siècle 1815-1884, T3 , librairie
plon , paris , 1884, p-p 220-221

.

[43]- O.mac carthy : revue de l'orient de l'Algéries ,T2, librairie just rouvier , paris , 1847, p 167.

[44]- Dominique Ranaivoson : op cit , p 13.

[45]- سحر السيد إبراهيم: المرجع السابق ، ص 186.

[46] - Louis brunet : op cit , p-p 184-187.

[47]– سحر السيد : المرجع السابق ، ص 187.